للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ — ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ٤٤ —

الخاتمة

مات الرافعي فانطوت صفحة من تاريخ الأدب في مصر وانقرض جيل من أدباء العربية كان له مذهب ومنهاج ؛ ولكن الرافعي الذي مات وغيَّبته الصفائح قد خلَّف وراءه تراثاً من الذكريات والآثار الفنية ستتعاقب أجيال قبل أن يفرغ الأدباء من دراستها والحديث عنها ؛ وإنها لذكريات تثير في كل نفس ما تثير من عوامل الكره أو المحبة ، وإنها لآثار ...

أما هذه الذكريات، على ما تبعث في نفوس طائفة من الأدباء من معاني الغضب أو معاني الرضا ، فقد أثبتُّ منها في هذه الفصول ما قدرت عليه ؛ وليس يعنيني ما تترك من أثر في نفس قارئها ، إذ كانت غايتي التي أحرص عليها هي جلاء هذا التاريخ لقراء العربية كما أجد صورته في نفسي وأثره في وجداني ، متجرداً ما استطعت من غلبة الهوى وسلطان العاطفة وتحكم الرأي ؛ لأضع بين يدي كل قارئ — اليوم أو غداً — المادة التي تعينه على الدرس والحكم والموازنة

وأما آثاره الأدبية فقد فصَّلت الحديث عن بعضها في بعض ما سبق من هذه الفصول ، وإلى القارئ جملها مرتبةً على التاريخ الزمني :

١ — ديوان الرافعي : ثلاثة أجزاء ، صدرت بين سنتي ١٩٠٣ و ١٩٠٦ ، وقدم لكل جزء منها بمقدمة في معاني الشعر تدل على مذهبه ومنهجه ، وهي مذيلة بشرح يُنسب إلى أخيه المرحوم محمد كامل الرافعي وهو من إنشاء المترجم نفسه

٢ — ديوان النظرات : جزءان ، صدرا بين سنتي ١٩٠٦ و ١٩٠٨

٣ — ملكة الإنشاء : كتاب مدرسي يحتوي على نماذج أدبية من إنشائه ، أعدَّ أكثر موضوعاته وتهيأ لإصداره في سنة ١٩٠٧ ، ونشر منه بعض نماذج في ديوان النظرات ، ثم صرفته شئون ما عن تنفيذ فكرته فأغفله ، وقد ضاعت (أصوله) فلم يبق منه إلا النماذج المطبوعة في ديوان النظرات

٤ — تاريخ آداب العرب : صدر في سنة ١٩١١ بحسب من إنشاء الجامعة المصرية ، ويراه أكثر الأدباء كتابَ الرافعي الذي لا يعرفونه إلا به

٥ — إعجاز القرآن : وهو الجزء الثاني من تاريخ آداب العرب ، طُبع ثلاث مرات ، أخراها في سنة ١٩٢٦ على نفقة المغفور له الملك فؤاد

٦ — حديث القمر : أول ما أصدر الرافعي في أدب الانشاء ، وهو أسلوب رمزي في الحب تغلب عليه الصنعة ، أنشأه بعد رحلته إلى لبنان في سنة ١٩١٢ ، حيث التقى لأول مرة بالآنسة الأديبة (م . ى) فكان بينهما ما كان مما أجلت الحديث عنه في بعض الفصول من قصة حبه

٧ — المساكين : فصول في بعض المعاني الإنسانية ألهمه إياه بعض ما كان في مصر من أثر الحرب العامة أنشأه في سنة ١٩١٧

٨ — نشيد سعد باشا زغلول : كتيِّب صغير عن نشيده : « اسلمي يا مصر ! » الذي أهداه إلى المرحوم سعد زغلول في سنة ١٩٢٣ ، طبع المطبعة السلفية بالقاهرة ؛ وأكثر ما في الكتاب من المقالات هو من إنشاء الرافعي أو إملائه

٩ — النشيد الوطني المصري : « إلى العلا ... » ضبط ألحانه الموسيقية ، الموسيقار المشهور منصور عوض

١٠ — رسائل الأحزان : كتاب أنشأه في سنة ١٩٢٤ يتحدث فيه عن شيء مما كان بينه وبين فلانة ، على شكل رسائل يزعم أنها من صديق يشفُّه ذات صدره

١١ — السحاب الأحمر : هو الجزء الثاني من قصة حب فلانة ، أو الطور الثاني من أطواره بعد القطيعة ، صدر بعد رسائل الأحزان بأشهر

١٢ — المعركة تحت راية القرآن : هو كتاب « الجديد

والقديم » وفيه قصة ما كان بينه وبين الدكتور طه حسين لمناسبة كتابه « فى الشعر الجاهلى » ، صدر فى سنة ١٩٢٦

١٣ — على السفود : قصة الرافعى والعقاد ، نشرته مجلة العصور فى عهد منشئها الأول الأستاذ إسماعيل مظهر ، ولم تذكر اسم مؤلفه ورمزت إليه بكلمة « إمام من أئمة الأدب العربى »

١٤ — أوراق الورد : الجزء الأخير من قصة حبه ، يقوم على رسائل فى فلسفة الجمال والحب أنشأها ليصور حالا من حاله فيما كان بينه وبين فلانة، وعما كان بينه وبين صديقته الأولى صاحبة حديث القمر

وتتبع هذه الأربعة : حديث القمر ، ورسائل الأحزان ، والسحاب الأحمر ، وأوراق الورد — وحدة يتم بعضها بعضاً ، لأنها جميعاً تنبع من معين واحد وترمى إلى هدف واحد وإن اختلفت أساليبها ومذاهبها

١٥ — ؟ ؟ ؟ : كتاب لا أسميه ، أنشأه فى صيف سنة ١٩٣٥ ، استجابة لرأى صديقه فلان وإليه بنسب !

١٦ — وحى القلم : مجموع مقالاته فى الرسالة بين سنتى ١٩٣٤ و ١٩٣٦ إلى مقالات أخرى ، طبع منه جزءان

* * *

وله عدا ذلك كتب لم يطبع أكثرها ما يأتى :

١ — الجزء الثالث من تاريخ آداب العرب : تام التأليف والتصنيف تقريباً

أسرار الإعجاز : فيه فصول تامة التأليف ، وفصول أخرى أجل فكرتها فى كلمات على ورق أو أشار إلى مصادرها ، وكان الرافعى يعتد بهذا الكتاب اعتداداً كبيراً ، وهو جدير بذلك حقاً ؛ وقد أطلعنى — رحمه الله — على فصول منه ، كما تحدث إلىّ عن نهجه فى تأليفه ، وأذكر أن نهجه فيه كما يأتى :

ا — يتحدث فى صدر الكتاب عن البلاغة العربية ، فيردها إلى أصول غير الأصول التى اصطلح عليها علماؤها منذ كانت ، ويضع لها قواعد جديدة وأصولاً أخرى

ب — ويتحدث فى الفصل الثانى عن بلاغة القرآن وأسرار إعجازه ، مسترشداً فى ذلك بما قدم فى الفصل السابق من قواعد

جـ — ويتناول فى الفصل الأخير من الكتاب ، آيات من القرآن على أسلوب من التفسير يبين سر إعجازها فى اللفظ والمعنى والفكرة العامة ؛ ويعتبر هذا الفصل الأخير هو صلب الكتاب وأساسه ؛ وقد أتم الكتابة — إلى آخر يوم كنت معه — عن بضع وثمانين آية على هذا النسق ؛ وقد نشر منها فى الرسالة بضع آيات مفسرة على ذلك النهج ، جعلها فى بعض أقاصيصه[1]

٣ — ديوان أغانى الشعب : وهو ديوان من الشعر جمل فيه لكل جماعة أو طائفة من طوائف الشعب نشيداً أو أغنية عربية تنطق بخواطرها وتعبر عن أمانيها ؛ وقد أنجز الرافعى طائفة كبيرة من هذه الأغانى نشر بعضها وما يزال سائرها بين أوراقه الخاصة ومؤلفاته التى لم تنشر . وأكثر الأغانى فى هذا الديوان مأنوس اللفظ رشيق المعنى مما يجمل وقعه فى النفس ويخف جرسه على الأذن .

٤ — الجزء الثالث من وحى القلم ؛ وفيه سائر المقالات التى كتبها، سواء منها ما نشر فى الرسالة وغيرها من المجلات والصحف، وما لم ينشر من قبل

٥ — الجزء الأخير من الديوان : وهو مجموعة كبيرة من شعره بين سنتى ١٩٠٨ و ١٩٣٧ ، بما فيه من شعر الحب ، والمدائح الملكية التى أنشأها للمغفور له الملك فؤاد

هذا إلى شتيت من المقالات وارسائل الأدبية أنشأها لمناسباتها ومنها كثير من مقدمات الكتب المطبوعة ، بعضها منسوب إليه وبعضها منحول مجهول النسب !

* * *

وعلى كثرة ما ألف الرافعى وأنشأ من الكتب والرسائل والمقالات والشعر ، فانك لا تكاد تجد كتاباً من كتب الرافعى فى دكان من دكاكين الوراقين ، اللهم إلا نسخاً من كتاب وحى القلم فى مكتبة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، التى طبعته قبل أن يؤلفه بأشهر

أما المطبوع من سائر الكتب فقد نفد من السوق ، وأما غير المطبوع منها فما يزال ورقات وقصاصات على مكتبه ، وإنى لأخشى أن يمضى وقت طويل قبل أن تنتبه إلى ضرورة العناية بهذه المؤلفات التى خلفها الرافعى ورقات مخطوطة يكاد يبليها الاهمال والنسيان أو يسبق إليها السّ والقوارض

ولدى الدكتور محمد الرافعى مشروع لاحياء تراث أبيه ،

(١) اقرأ فى قصة « سمو الحب » تفسير قوله تعالى : « وراودته التى هو فى بيتها ... » الآية